من (الإمام الشيخ) حسن البنا..

هناك أفكار في الزيدية انتهى دورها .. وهناك فيها أيضاً أصول قائمة .. لكن الأفكار الهادوية التي تقول بحصر وتوريث الحكم في سلالة البطنين الهاشمية القرشية دخيلة على مذهب الإمام زيد بن علي ..لأنها تستند الى حديث مزعوم عن حصر وتوريث الخلافة أو الإمامة في قريش .. وهو من معتقدات أهل السنة ،التي يستفيد منها دعاة العصبية السلالية من أهل الشيعه

المحطة الأولى
القاهرة ـ 1992

حاوره في القاهرة و صنعاء:
أحمد الحبيشي

الحبيشي : أستاذ جمال لاحظت من خلال كتاباتك ودراساتك في الفكر الاشتراكي أنّك تحاول دائماً أن تبرئ ماركس من اللينينية ، وأبديت تعاطفاً مع روزا لوكسمبورج في الخلاف مع لينين، هل يمكننا اعتبار خبرتك مع قراءة تاريخ الفكر الاشتراكي جزءاً من المؤثرات التي لعبت دوراً في اهتمامك بقضايا الحركة النقابية ، وبالتالي تأصيلها إسلامياً؟

البنا : لا بأس، لأنّ الفكر الاشتراكي كان جديداً على الفكر الإسلامي، فيمكن أن نجد أصولاً له في أبي ذر مثلاً عندما يقول لمعاوية لماذا تقول مال الله ؟ وهو مال المسلمين .. فقال له : يا أبا ذر رحمك الله ، المال مال الله ، ونحن عباد الله، فقال له أبو ذر : لا .. لا تقل هذا، بل قل مال المسلمين .. هذه لفتة في منتهى الأهمية من أبي ذر، لأنه لما يقول مال الله، ممكن جداً باعتباره الخليفة المسؤول عن التوزيع أن يحتكره ويتصرف ويتحكم فيه.. ويعتبر أن هذه هي مسؤوليته.

من المحتمل أن نجد مثل هذه اللفتة في صميم الأصول الاشتراكية تقريباً ، ولكن الفكر الاشتراكي باعتباره ظهر في أوروبا كرد فعل للثورة الصناعية وللاستغلال الرأسمالي كان جديداً على الفكّر العالمي.

وباعتبارنا كمسلمين علينا أن نلتمس الحكمة أينما وجدناها.. ونلتمس العلم من كافة المصادر والجهات.. كان علينا أن نلم به... فبالنسبة لأوروبا كان الفكر الإشتراكي جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الأوروبية.. من المناخ ومن البيئة الأوروبية.. وقام بدور كبير في إنقاذ الشعوب الأوروبية من الاستغلال الرأسمالي ..بل حتى دراسته .. كما أن نقده للرأسمالية نفسها أفادت الرأسمالية في أنها إكتشفت وجوه النقص والتناقضات فيها بحيث استطاع الرأسماليون أن يمدوا حبل حياتها ويطيلوا عمرها.

ماركس تنبأ بأنّ الرأسمالية ستنتهي .. فكتب في كتاب "رأس المال" بأنه بعد عقود من السنين ستنتهي الرأسمالية .. لكن الرأسمالية عاشت.. بل شهدت عصورها الذهبية بعد ذلك.. السبب أنّ نقد ماركس للرأسمالية مكّن منظريها مثل "كينز" ان يكتشفوا جوانب الضعف والنقص فيها وحاولوا علاجها وإصلاحها في الثلاثينات بعد إنتشار الأفكار الاشتراكية في أوروبا.

أعتقد أنّ ماركس لا يمكن أن يُحاسب على كلام أتباعه ، وله في هذا كلمة مشهورة عندما كان بعض أتباعه يتشيعون ويتعصبون لآرائه فقال : " أنا لست ماركسيا ".

هناك فرق بين الأتباع والأنصار العميان .. وبين الداعية الأصلي.

الحبيشي : أستاذ جمال .. سبق لك أن أشرت إلى تجربة شقيقك الأكبر الشهيد حسن البنّا كقائد ومفكر موهوب.. ثمة تساؤل يطرح نفسه عن مدى تأثير الشّهيد حسن البناء على حياتكم وعلى اختياراتكم في الحياة الفكرية بالذات.. لعلك أشرت إلى أنّك كسياسي فشلت في تأسيس حزب في الأربعينيات .. وبالتالي لا نريد أن نخوض في اختياراتكم السيّاسية.. في تقديري الشخصي أن اهتماماتكم المتميزة بقضايا الحركة النقابية، وقضايا الحركة العمالية .. وإعجابكم الملحوظ بأخيكم الشهيد حسن البنا رحمه الله، يضع أمام المراقب المحايد سؤالاً جاداً هو أنّ حسن البنا لم يكن يهتم بقضايا العمال بل أنّه وفي كل كتاباته التي كان يلامس بها بعض قضايا المجتمع المصري أشار صراحة إلى أنّه «ليس ما بيننا وبين الأغنياء ومالكي رؤوس الأموال سوى أن يدفعوا الزكاة والصدقات» .. هكذا لخص فكره من هذه القضية بأنّ لا يوجد بينه وبين أصحاب العمل شيء سوى أنّ عليهم دفع الزكاة والصدقات، لكن أنت تثير قضايا التنظيم النقابي للعمال .. قضايا العمل .. قضايا تشريعات العمل الضمان الاجتماعي والسلامة المهنية ومكافحة الظلم الاجتماعي والاستغلال والجشع وغيرها من التفاصيل التي وردت في كتبكم والتي تكاد تكون بصراحة من ضمن تراث الفكر الاجتماعي والعمالي العربي وليس فقط من اهتمامات الفكر الإسلامي بالعمال .. يعني أنّها تصلح لأن تكون من تراث الفكر العمالي ومن تراث الحركة النقابية الفكري..

كيف يمكن أن تسلط الضوء على هذه القضية وتحدد مفتاح الإشكالية بالنسبة إلى موقف الشهيد حسن البنا المغاير لاختياراتكم ؟؟

البنا : شكراً .. الأستاذ حسن البنا رحمه الله هو أستاذي ومدرسي في السنة الأولى الابتدائية.. يعني هو كان مدرسي في مدرسة الإسماعيلية الابتدائية في الوقت الذي كنت فيه طالباً في السنة الأولى .. فقد كان مدرسي وأستاذي في سنوات الدراسة الأولى .. وطبعاً ما من شك في أنّ الأستاذ البنا رحمه الله توافرت فيه ما لم يتوافر في غيره من القادة .. كان مفكراً.. منظراً.. واستطاع أن يتوصل إلى صيغة تنظيم الإخوان المسلمين .. صيغة فريدة في نوعها في حقيقة الحال .. وكانت دائماً محل تساؤل .. هل أنتم حزب ؟ هل أنتم طريقة صوفية ؟ هل أنتم .. الخ .. ورد هو على هذه التساؤلات كلها.. كان منظماً أيضاً .. وقليل جداً أنك تجد من يجمع بين أن يكون منظراً ومنظماً .. يعني ماركس مثلاً .. كان منظراً ولكن كان فاشلاً جداً كمنظم .. وعندما كان يخطب في الأممية الإشتراكية الأولى كان الناس لا يفهمون منه حاجة عملياً.. كان خطيباً فاشلاً جداً .. لأنه بالنظارات بتاعته وبالفكر بتاعه.. بعيد كل البعد عن أن يلمس قلوب العمال ويملك اهتماماتهم .. رغم أنه يتكلم عن قضاياهم بالذات.. ولكن الطبيعة الإنسانية معقدة إلى حد كبير جداً وليس شرطاً أنك تملك قلوب الناس بالحديث عن مشاكلهم ولكن بوسائل أخرى.

فالأستاذ البنا كان منظماً وكان منظراً أيضاً .. كذلك كان عنده ملكات شخصية مثل الحضور، الجاذبية، الذاكرة القوية (السيكولوجية) إرهاف الحس السيكولوجي .. هذه كلها لم تكن موجودة عند كثير من القادة الإسلاميين .. وهذه من أسرار نجاحه في وقت مبكر.. و عندما استشهد في سن 42 كان خلص كل حاجة.. يعني بدا من سن 20 إلى غاية 42 وكان قد قام بمعظم رسالته الكبرى.

أما الإشكالية فهي جاءت من حقيقة أنّ الأستاذ البنا رحمه الله كان يعمل بطريقة مرحلية .. في الأول كان يعمل بطريقة الحشد .. يريد أن يجمع الناس على مسلمات.. وهذه واضحة جداً في الشعارات الإخوانية « القرآن دستورنا، والرسول (زعيمنا) والموت في سبيل الله أسمى أمانينا » .. هذه لا أحد يجادل عليها.. وكان يريد أن يجمع الناس على هذه المسلمات.

يتلو ذلك مرحلة أخرى يسميها (مرحلة الفرز) وليس الحشد يبدأ فيها استخلاص العناصر، ويبدأ فيها أيضاً تعميق الفكر العام، وله رسالة اسمها (مشكلاتنا في ضوء التطبيق الإسلامي) .. يعني ما بين الحشد وما بين الفرز.. والتي تحدّث فيها عن النظام السياسي بطريقة ديمقراطية بحيث أنّ أي كاتب ديمقراطي يؤمن بالانتخابات ويؤمن بالأحزاب يتقبلها.

كان عليه في مرحلة تالية أن يقوم بعملية الفرز وعملية التحديد والخروج من العموميات إلى التفاصيل والتحديد والجزئيات ولكن الوقت لم يتسع له.. لأنّه فعلاً كان بدأ يخرج من مرحلة الحشد إلى أول فرز عندما استشهد.. من هنا لم نجد له عناية خاصة بقضايا العمال ولكن أحب أن أتحفظ على ما جاء في كلامك .. هو كان عنده تعاطف مع قضايا العمال مثلاً.. نقابة الغزل والنسيج التي هي أول نقابة وأكبر نقابة في مصر في الأربعينات كان مكانها في يوم من الأيام هي شعبة الإخوان المسلمين في شبرا الخيمة.. مقر الشعبة هو مقر النقابة .. لاقيت أنا في الإخوان المسلمين زعماء نقابة الغزل والنسيج والذين أصبحوا فيما بعد لهم اتجاهات ماركسية، فكان له عناية ولكن الوقت لم يتسع لكي يؤصل هذه العناية.. ثمّ كوّنوا قسماً للعمال – للأسف الشديد وضع في يد مجموعة من البرجوازية الصغيرة – كما يقولون – فخدعوا بمجموعة من حجاج النسيج .. لأنّ صناعة النسيج في مصر كان يسيطر عليها مجموعة من المتمصرين أو الشوام، فهؤلاء الحاج سامي والحاج حمدي والحاج مش عارف مين.. هؤلاء استطاعوا أن يخدعوا المسؤولين عن قسم العمال في الإخوان المسلمين بكثير من الدعاوى ولم يكن عند المسؤولين الفكر العمالي الحقيقي.. ومن أجل هذا سار قسم العمال في الإخوان المسلمين في اتجاه غير سليم .. والمجموعة العمالية التي انضمت إليه سارت عليه في مرحلة لاحقة.

الذي أريد أن أقوله هو أنه لم يتسع الوقت للأستاذ البنا رحمه الله لكي يتناول التفاصيل، فهو في مرحلة سابقة كان يتناول العموميات ونجح في هذا واستطاع أنه يحشد أكبر مجموعة تحت مسلمات لا خلاف عليها.. فكان الدور الآتي أنه يفرز بالنسبة للجماهير ويحدد بالنسبة للمفاهيم وهذا ما لم يتسع له في حياته، لأنه استشهد في بداية هذه المرحلة.

الحبيشي : أستاذ جمال أخبرني عدد من الشخصيات الإسلامية االتي التقيت بها في القاهرة ومنها من لا ينتسب إلى حركة الإخوان المسلمين حالياً ..أخبروني أنّ الشهيد حسن البنا لو عاش بعد نجاح ثورة 23 يوليو لتغير تغيراً جذرياً .. وأشاروا إلى أنّ كثيراً ممن يعرفون البنا يشهدون بأنّ هذا التحول والتغيير كان سيحدث فعلاً .. وكان سيترك أثراً كبيراً على مستقبل الحركات الإسلامية السياسية التي عاشت منذ الخمسينيات وحتى الآن في تناقضات معقدة، ودخلت في صراعات مع القوى القومية ومع أنظمتها السياسية.. يقول البعض إنّه ما كان لحركة الإخوان أن تخوض معها هذه الصراعات لو كان حسن البنا حياً".. وهؤلاء الذين ينقلون عن الشهيد حسن البنا هذه التوقعات يقولون بأنّ حسن البنا كان قد بدأ يتلمس طريقاً لتطوير مواقفه قبل استشهاده رحمه الله.

بما أنّكم شقيقه وأقرب الناس إليه.. هل يمكن أن تؤكدوا أو تنفوا ما سمعناه حول هذا الموضوع؟

البنا : هو قبل ثورة 23 يوليو – إذا جاز لي أن أقول ثورة 23 يوليو – لأنني طبعاً لي موقف من هذه القضية شرحته في كتابي (الإسلام هو الحل) ولكن في الأيام الأولى عندما حدث الصدام سنة 1948م بين الإخوان وبين النقراشي وبين الحكم ووصل هذا الصراع إلى باب مغلق وانتهى بحل الإخوان في 8 ديسمبر 1948م .. كانت هذه الأحداث سبباً في أن تبعث في الأستاذ البنا رحمه الله فكرة إعادة النظر وترتيب الأولويات وهو رجل له إستراتيجية طويلة.. لم تكن محل تغيير. وهي الإسلام بالمفهوم الواسع الذي انتهى إليه.. وله (تكتيك) معين حسب الأوضاع .. فوجد أنّ التكتيك، بتاعه اختلف أو أنّ التكتيك لم يكن يتفق أو أدى إلى صدام هدد كيان الجماعة كلها.. فكان فعلاً يفكر في نوع من التغيير.. وأنا ألمس هذا – لعلي لمست هذا في أيامي الأخيرة جداً مع الشهيد حسن البنا – لكني أود أن أقول لك إنّي كوني شقيقه لا قيمة لها بالنسبة للعَلاقة من ناحية الدعوة .. لأنّه هو كان يأتمن أصغر عضو في الإخوان أكثر مما يأتمن شقيقاً له لم يكن منتمياً إلى الإخوان من ناحية.. ومن ناحية ثانية عَلاقتي به أنا بالذات لم تكن عَلاقة وثيقة جداً .. يعني نحن كنا نسكن إلى مرحلة قريبة في بيت واحد مثلاً وفي معزة خاصة بيني وبينه .. ولكنّ هذا لا يؤهلني للحكم في هذه النقطة.. ولكن استطيع مع هذا أقول إني لمست فكرة بإعادة ترتيب الأوراق وهو مرة عندما ذكرت لكم إني كنت قد كوّنت حزبا في سنة 1946م وتعرضت للاضطهاد مع البوليس قال لي : "لماذا تكوّن حزبا ؟" .. قل جماعة .. قل هيئة .. قل طريقة.. أنا (ما يهمنيش) الأسماء.. لو تعرض الإخوان لأي شيء أغير أي (حاجة علشان) إننا نقدر نتجاوز الأزمة.. لم يكن جامداً في ما يتعلق بالوسائل والأساليب.. كان مرناً جداً .. والمرونة أكبر صفات الأستاذ البنا رحمه الله.. فكان من الممكن جداً أن يحدث نوع من التغيير لكي يقدر أن يتجاوز الصعوبات التي يتعرض لها.

أما بالنسبة لحركة 23 يوليو فلو كان الشهيد البنا حياً لما قامت أصلاً أو لما قامت بالشكل الذي قامت به .. وانتهت اليه .. لأنه كان ممكناً جداً أنّ الأستاذ البنا يحتوي عبدالناصر وكان ممكناً جداً أنه يوجه هذه المجموعة توجيهاً سليماً ويوجد نوعاً من التعاون .. وكما قلت لك ـ هو كان مرناً ـ وهذه المرونة لم تكن موجودة مطلقاً عند المرشد الثاني وهو الهضيبي رحمه الله الذي كان رجلاً قضائياً يحكم بمنطق القضاء .. والقاضي ليس عنده مرونة .. يعني لو أنه مرن لن يحكم بالقانون .. بل سيحكم برأيه .. فلم تكن المرونة موجودة ولهذا حدث الصدام.

وأود أن أقول لك إنّ جمال عبدالناصر في أيامه الأولى رغم أنه متآمر بطبعه .. رغم أنه طموح بطبعه ولكن لم يكن عبدالناصر الذي تتصورونه.. ولم يكن في فكره كل ما انتهى إليه.. كان من الممكن جدا احتواؤه.. خصوصاً أنّه كان هناك جناح كبير من الإخوان في مجلس قيادة الثورة .. ولكن هذا ما عجز عن أن يفهمه الهضيبي ومجموعة الجهاز الخاص التي كانت عقليتها صغيرة جداً.. (الجهاز السري أو الجهاز الخاص) .. كان سيتم تغيير كبير جداً جداً.. ليس فحسب في مصر، بل في كل المنطقة العربية ولكن ربنا أراد له الخير.

الحبيشي : طيب أستاذ جمال، لو ننتقل إلى قضية الحرية ، بما هي تحرير الأمة من الاستعباد من الفقر، من العوز، من الإرهاب، ومن الخوف، ومن كل الأشياء التي تهدد حياته وتهدد إنسانيته.

الديمقراطية الآن – في تقديري الشخصي – هي واحدة من الوسائل العصرية التي استقرت عليها الحضارة البشرية في عصرنا سواءً من حيث النظم السياسية، أو من حيث آليات الإدارة الاقتصادية، أو آليات إدارة شؤون الدولة والمجتمع.. أو آليات إدارة الأسرة والمدرسة.. والحال أنّه لا يمكن ـ في هذا العصر ـ قياس المحتوى الإنساني لهذه المنظومة من آليات قيادة المجتمعات بدون أن تكون الحرية وحقوق الإنسان هي غايتها الرئيسية.

بالنظر إلى ذلك أصبحت قضية الديمقراطية اتجاهاً عالمياً لتطور العصر وتطور الدول والنظم السياسية والأمم والشعوب.. بعض الجماعات الإسلامية السياسية لا يعترف بالديمقراطية ويعتبرها كفراً.. وبعض الإسلاميين السياسيين يقولون إنّ الديمقراطية كلمة أعجمية وبعض آخر يصفها بأنّها تتعارض مع الإسلام ولا محل لها في النظام الإسلامي لأنّها غربية.. هذا منطق ضعيف في تقديري لأنّ القرآن انطوى على كثير من الألفاظ والتعابير غير العربية.. ناهيك عن أنّ القرآن استوعب في تشريعاته بعض التشريعات التي كان يعمل بها قبل الإسلام .. سواء تلك التي تضمنتها اليهودية أو المسيحية أو التشريعات الوضعية التي كان يعمل بها الوثنيون.. علماً بأنّ الإسلام قدم تعريفاً للمجتمع السابق له بأنّه جاهلي .. ومع ذلك استوعب بعض التشريعات التي كانت سارية في ذلك المجتمع.

عالمنا العربي.. وعالمنا الإسلامي يعيشان حالياً قضايا وهموم ومشاكل الانتقال إلى الديمقراطية ومصاعبها وتناقضاتها وتحدياتها .. والديمقراطية كما أراها وسيلتنا الى الحرية القصوى.. أي حرية الإنسان التي هي غاية الإسلام.

ومن مصاعب الانتقال إلى الديمقراطية يأتي الخطاب السياسي لمعظم الحركات الإسلامية.. وهو خطاب يتعامل مع قضية الديمقراطية بتحفظ حذر من جهة عبر التمييز بين الشورى والديمقراطية ، وبرفض صريح للديمقراطية من جهة أخرى.

صحيح أنّ هذا الخطاب يقدم نفسه كحل للخلاص من بؤس الواقع ولبلوغ مستقبل أفضل لكنه يعيش في الماضي ويقيم فيه بصورة دائمة .. ويتنفس من بقايا ريّة الماضي ويستدعي ما يسميه بنموذج التاريخ الماضوي الذي تركناه .. هذا الخطاب يروج تارة لفكرة إعادة نظام الخلافة كما هو الحال عند السنة وتارة أخرى لفكرة إحياء نظام الامامة قبل أن يخترع الخميني نظاما جمهوريا مؤقتا يحكمه رجال الدين تحت مظلة ولاية الفقيه لحين ظهور الامام الغائب .. مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذه الفكرة أو تلك هي فكرة سياسية بإمتياز من وجهة نظري .. والماضي الذي يتحدثون عنه كان طافحاً بالصراعات من أجل السلطة.. صراعات سياسية بين مسلمين مؤمنين بالله وبالشهادتين.

الحاكمون المستبدون كانوا فقهاء ومسلمين.. والمعارضون والضحايا كانوا أيضا فقهاء ومسلمين .. كل طرف منهم كان يبرر نفسه ويبرر مواقفه بالاستناد إلى شرعية دينية أو فقهية.. القراءة العقلانية الحرة لذلك التاريخ تقول لنا إنّه كان صراعا بين مصالح وإرادات وعصبيات متعارضة ومتنوعة.. لم يسجل لنا التاريخ أنّ طرفاً من تلك الأطراف المتصارعة الظالمة أو المظلومة في مختلف الدول الإسلامية التي قامت على أساس الخلافة وعلى أساس إعلان الحكم بكتاب الله وسُنة رسوله.. لم يسجل التاريخ أنّ أحدهم أعلن كفراً بواحا..

الذين قتلوا الخليفة عثمان بن عفّان وهو صحابيٌ جليلٌ وعالم ورع كانوا مسلمين.. وقد اعتدوا على جثته دون مراعاة حرمة الميت وكسروا أحد ضلوع الجثة وتركوها أياماً بدون دفن حتى تمّ دفنها في مقابر اليهود، لأنهم رفضوا دفنه في مقابر المسلمين.

والذين قتلوا الحسين وهو حفيد النبي ومثلوا بجثته كانوا مسلمين.. والذي قتل عبدالله بن الزبير وداس على جثته هو عبدالملك بن مروان وكان فقيها وقائدا عسكريا قبل أن يصبح خليفة.. وحدث مثل هذا مع كثير من معارضي النظام الأموي الوراثي وفي مقدمتهم زيد بن علي.. ناهيك عن أنّ ظهور النظام الأموي وانتقال السلطة إلى معاوية ارتبط بقتل علي بن أبي طالب أول المؤمنين وأغزر الصحابة علما وفقها وأدبا.. كما ارتبط ظهور ذلك النظام بانقسام المسلمين وبخدعة سياسية فبركها الدهاة السياسيون باسم الدين والتظاهر بالاحتكام لكتاب الله بعد أن رفعوا المصاحف على أسنة الرماح.

ومما له دلالة عميقة أنّ الخليفة عبدالملك بن مروان وكان مشهوداً له بعلمه وفقهه وقف عندما كان قائداً عسكرياً في عهد يزيد بن معاوية أمام المسلمين في المدينة شاهراً سيفه بعد مقتل خصمه اللدود عبدالله بن الزبير وهو الآخر من صحابة رسول الله، ثم قال قوله الشهير : (والله لو أنّ أحداً منكم أمرني بتقوى الله لضربت عنقه بحد هذا السيف) .!!

وكما هو معروف فإنّ معاوية جعل الحكم وراثياً في أبنائه وأحفاده وأبناء عشيرته من قبيلة بني امية القرشية .. وابتدع منصب ولي العهد.. وكرد فعل لذلك ظهرت دعوات وحركات رافضة لبيعة يزيد ولفكرة ولاية العهد حيث أطلق فقهاء يزيد بن معاوية صفة الروافض ضد كل الذين رفضوا البيعة ليزيد .. في هذا السياق طالب الذين رفضوا البيعة ليزيد بن معاوية بأن يكون الحكم في آل البيت.. طالما وأنّ ساسة قريش قد اقروا في السقيفة مبدأ استئثار الحكم إلى عصبية قريشية تحميه.. كما ظهرت دعوات أخرى من بين أهل الشيعة تدعو إلى إمامة المفضول في ظل وجود الفاضل.. وهناك من دعا إلى أن تكون الإمامة عامة في أفضل الخلق دون تمييز على أساس اللون أو العصبية.

النظام الأموي انتهى يا أستاذي بنفس الوسائل التآمرية والعصبوية القاسية التي تأسس عليها.. وجاء العباسيون بعد ذلك لينبشوا قبور الخلفاء الأمويين دون وازع من دين أو ضمير أو أخلاق.. أما الأحياء من الأمويين فإنّ كتب التاريخ تقول لنا بأنّ الخليفة أبو العباس السفاح دعاهم إلى قصره في بغداد وقتلهم بوحشية ورص جثتهم على الأرض وفرش عليها بساطا ومائدة وجلس هو أعوانه يأكلون ويشربون على بساط المائدة المفروش فوق الجثث رغم أنّ بعضها كان ما يزال يتحرك ببقايا من نبض الحياة.. كل كتب التاريخ أجمعت على هذه الواقعة.

أيضاً هناك حقائق مُرّة عن الدويلات الإسلامية التي تأسست في الأطراف .. في المغرب أو مصر أو اليمن، أو بلاد السند.. دويلات ملوك الطوائف والعصبيات والقبائل والعشائر، كلها كانت تبرر قيامها أو استقلالها باسم الإسلام .. وكانت تتناحر باسم الإسلام .. وكل الحكام المتناحرين والمتخاصمين كانوا يقولون بأنّهم يحكمون بالكتاب والسنة.. وبالمقابل كان معارضوهم يقاومونهم باسم الكتاب والسنة أيضا ، حتى تشابه البقر علينا !!.

ترى أي نموذج من هذه النماذج التي تناحرت باسم الإسلام يمكن أن يستحضره لنا الخطاب السياسي الحزبي لبعض الحركات الإسلامية السلفية.. هذا الخطاب يجبرنا على أن نمارس السياسة بتفكير سلفي ماضوي .. ولا نستطيع طبقا لهذا الخطاب إلغاء عقولنا لنصدق بأنّ استدعاء أحد هذه النماذج يمكن أن يحل لنا مشكلة تداول السلطة في عصرنا.. وهل يكفي القول بأنّ الجماعة الإسلامية الفلانية أو الحزب أو التجمع الاسلامي الفلاني سوف يحكم بالكتاب والسنة وبالتالي سوف يقيم العدل ويعالج مشاكل الفقر والبطالة والأسواق ومصاعب النمو .. وسوف يفتح أبواب الحرية والتقدم على مصراعيها .. علماً بأنّه لم يعُد خافياً على أحد أنّ هذه الجماعات السلفية وكذلك أحزاب الاسلام السياسي تمارس الاستبداد في حياتها الداخلية التي يسودها التسلط العصبوي المناطقي أو الشللي.

إنّ فاقد الشيء لا يعطيه.. بالإضافة إلى كل ذلك نجد أنّ كتب التاريخ تروي لنا العديد من مظاهر الاستبداد والمظالم والانحرافات عن قيم ومثل ومبادئ الدين.. أما أبرز مآثر تاريخنا فنحن لا ننكرها وخاصة تلك التي تفضلتم بالحديث عنها قبل قليل والتي تتمثل في الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة وتوسيع نطاق الدولة الإسلامية جغرافياً وسياسيا واقتصادياً .. حدث هذا في العصر الحديث أيضا حين استولى السلاطين العثمانيون على بلدان شبه جزيرة البلقان في أوروبا.. لكننا لا ننسى أنّ هذا التوسع في القرون الحديثة اتسم بنزعة استعمارية ضد شعوب البلقان وبنزعة التتريك العنصرية ضد العرب واللسان العربي.

ثمة حقيقة أخرى مريرة لا يجوز تجاهلها وهي الاضطهاد الذي تعرض له العلماء والفقهاء والمفكرون والفلاسفة في النظام الأموي والعباسي والعثماني .. وفي الدويلات التابعة لها.. حدث قمع للحريات وإرهاب للعقول وتكفير للاجتهادات والأفكار والآراء وإعدام لذوي الأفكار والآراء الجديدة.. حدث التحريم الشهير للفلسفة، بناء على فتاوى الفقهاء وكانت النتيجة أن أصبح العلم وخصوصاً الأبحاث النظرية والتطبيقية في العلوم الطبيعية مجردة من خلفيتها الفلسفية.. لأنّ الفلسفة هي التي تكتشف الحقائق وتقدمها إلى العلم.. وعندما حرم فقهاء الحيض والنفاس علم الفلسفة، توقفت حركة البحوث العلمية التطبيقية وتجمدت الحضارة الإسلامية عند الحدود التي وصل إليها علماء الطب والهندسة والرياضيات المسلمون وكلهم كانوا فلاسفة في الوقت نفسه.

أنا شخصياً لا أرى أي جدوى في الخطاب الديماغوجي الذي يتحدث عن ضرورة العودة إلى الماضي بصيغ عمومية وعاطفية .. وفي تقديري ان انعدام الحريات وخصوصا حرية التفكير وحقوق الإنسان كانت محصلة لاستبداد نظام الحكم.. وسيطرته على الحياة الفكرية وتدجينها.. وهذه المحصلة كانت السبب الرئيسي لجمود الحضارة العربية والاسلامية وانهيارها بعد ذلك وعجزها عن اللحاق بالحضارة الغربية التي حسمت قضية السلطة وقضية الحريات في بلدانها ، وانتصرت للعقل في صراعها مع محاكم التفتيش الكنسية التي تخصصت في ملاحقة وقمع وإضطهاد العلماء والمفكرين والفلاسفة الأوروبيين.

أما إذا كان أصحاب الخطاب الذي يدعونا إلى إحياء الماضي يضربون صفحا عن كل تلك الحقائق المأساوية والخسائر الإنسانية مقابل الاعتزاز بأمجاد الفتوحات ونشر الدعوة الإسلامية بقوة الدولة الشمولية وبواسطة الحروب المقدّسة والجهاد المقدّس.. فإنّهم لن يجدوا في ماضينا حلولاً واقعية لمشاكلنا ولتخلفنا الحضاري .. إنّهم على العكس من ذلك سيضيفون لنا مأزقاً جديداً.. لأنّ نشر الدعوة بالجهاد المسلح والفتوحات العسكرية والغزوات القتالية لا مكان له أيضاً في أواخر القرن العشرين وعلى تخوم القرن الحادي والعشرين .. ولا يتلاءم مع مبادئ الاسلام ومع قيم ومثل ومبادئ المجتمع الدولي المعاصر منذ التوقيع على اتفاقية ويستفاليا عام 1646 التي أقرت سيادة الدولة القومية على حدودها وأراضيها ومنع أي دولة من إجتياح دولة أخرى بالقوة أو الغزو العسكري .. وصولا الى ميثاق الأمم المتحدة الذي يعتبر أي عدوان على دولة مستقلة وذات سيادة عملا معاديا للسلم والأمن الدوليين يعرض من يرتكبه لعقوبات دولية متعددة وشاملة تحت الفصل السابع من الميثاق ..من بيتها إستخدام القوة ضده .

أما محاولة إضفاء القداسة على تاريخنا وماضينا وتقديمه بصورة وردية مطلقة.. والزعم بأنّ نموذج نظام الحكم في ظل الخلافة الإسلامية عبر كل العصور الغابرة هو الحقيقة التي ضيعناها.. وهو الحل الذي يجب استدعاؤه من خلف العصور.. الزعم بذلك هو مغالطة سياسية كبرى لوعي بسطاء الناس وجماهير الأميين.

صحيح قد تكون هناك استثناءات لتجارب مضيئة في الحكم.. لكنها محدودة بحساب الزمن.. وبحساب النتائج.. وبحساب التطابق مع روح الإسلام ومبادئه.. من الممكن أن نستثني تجربة الحكم في الخلافة الراشدة وخاصة أيام أبي بكر وعمر.. أما عهد عثمان فقد كان يموج بالصراعات والأحقاد وكذلك فترة علي بن أبي طالب.. وبعدهما تجربة الخليفة عمر بن عبدالعزيز ومدتها عامان وكانت نموذجية حتى أنّ المؤرخين وصفوه بخامس الخلفاء الراشدين مع الأخذ بعين الإعتبار ان أبرز المآثر التاريخية لعهد الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز هي إعادته الإعتبار للخليفة الراشد علي بن أبي طالب ، ومنع الدعاء عليه وعلى آل بيته في خطب الجمعة بمساجد دولة الخلافة .. على النقيض مما كان الحال عليه قبل مجيئه وعلى إمتداد نصف قرن تقريباً بحسب ما ذكره المؤرخون.

لاحظ معي ان كل الخلفاء الآخرين لم يكونوا امتدادا للخلفاء الراشدين الأربعة باستثناء واحد فقط هو عمر بن عبدالعزيز ومدة حكمه عامان فقط.. هذا هو رأي المؤرخين الأسلاف وليس هذا الرأي من خيالات القرن العشرين.

إذا جمعنا إجمالي الفترة الزمنية لهؤلاء الخلفاء الخمسة نجدها لم تتجاوز ثلاثين عاماً ونيفاً هذا إذا استثنينا الاستنزاف النفسي والدموي الذي ساد فترة عثمان وعلي.. أما إجمالي الحساب الختامي لتاريخنا الماضي عبر مختلف القرون والعصور فهو الذي يشكل ـ مع الأسف الشديد ـ النسيج العام للنظام السياسي الإسلامي.. وهذا الحساب خاسر بمقياس عصرنا الراهن ومعاييره ومواثيقه ولا يوجد فيه النموذج الذي يلحقنا بالقرن القادم.

هكذا يرتبط موقف معظم الجماعات الإسلامية المتحفظ أو الرافض إزاء الديمقراطية بخطاب يهيج العواطف والمشاعر السطحية.. علماً بأنّ ظهور هذا الخطاب السلفي تزامن مع الإعلان الرسمي عن إنهاء نظام الخلافة عام 1925م وظهور حركة الاخوان المسلمين عام 1928.

عفواً أستاذ جمال على الإطالة لأنني قصدت تأصيل سؤالي الذي أريد أن أوجهه اليكم بشأن رؤيتكم لإشكاليات الانتقال إلى الديمقراطية من زاوية ما يشهده المجتمع العربي من تحولات وخطوات واصلاحات متفاوتة على طريق الديمقراطية كوسيلة لبلوغ الحرية الكاملة التي يدعو إليها ديننا الإسلامي الحنيف.

البنا : شكراً لك.. والحقيقة أنك أطلت وأفضت.. لكن هناك كلمة جوهرية لا يجوز إهمالها أو نسيانها أو التنكر لها وهي ضرورة مراعاة حقيقة أنّ الإسلام باعتباره عقيدة وباعتباره إيمانا لابد أن يقوم على الحرية.

يعني ان الكثير من المفكرين والسياسيين ـ وهذه تُعد من المفارقات الغريبة جداً ـ تجاهلوا حقيقة أنّ الإسلام عقيدة تقوم على إيمان واع بها .. إذا لابد من حرية.. لأنّ الإنسان لا يمكن أن يصل الى الإيمان في مجتمع يسوده الضغط والإكراه والاستبداد.

المفروض بادئ ذي بدء أنّه إذا كان المجتمع الإسلامي هو مجتمع العقيدة.. فيجب بالتبعية أن يكون بحق مجتمع الحرية القصوى .. لكن الفهم الخاطئ بأنه لابد من دولة إسلامية تقوم على ضوابط مقيدة للحرية .. هذا خطأ تاريخي .. لأنّه في حقيقة الحال نجد أنّ دولة العقيدة الإسلامية بالذات هي دولة الحرية.. ارجع إلى الأصل الرئيسي .. إلى القرآن.. تجد فيه ضمانات قصوى للحرية القصوى .. ضمان لكل الحريات بما فيها حرية الكفر.. وبما فيها حرية الاعتقاد .. ألم يقل الله لنا في كتابه المنزل إلينا : « ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .. هذا الكلام لم نقله نحن.. إنه قول الله الحق وليس من حقنا أن نصادر هذه المشيئة الإلهية.. وما عليك ألا يزكى (سيبه يا سيدي إذا كان مش عايز ما يزكاش).. «وما عليك ألا يزكى »أليست هذه آية في سورة (عبس وتولى ان جاءه الأعمى).

في حقيقة الحال أنّ الإسلام أرسى وأقام الإيمان على الاختيار وعلى العقل وعلى القلب.. أليس الإيمان هو إرادة واعية.. وبذلك فإنه يدعو إلى الحرية.. الحرية في الاعتقاد.. أليس الإيمان، هو إرادة واعية .. وبذلك فإنه يدعو إلى الحرية.. الحرية في الاعتقاد .. الحرية في التفكير.. الحرية في اختيار الحكام .. الحرية في تداول الحكم بدون تسلط وبدون احتكار وبدون إكراه .. الحرية في المشاركة والمشاورة في الأمر بدون إجبار وبدون تزييف.

أنا لا أتصور أن يكون هناك مجتمع إسلامي حقيقي بدون حرية وأولها حرية الاعتقاد بما في ذلك كل ما تتضمنه حرية الاعتقاد .. وأنا واثق تماماً بأنّ الذين يدعون إلى تقييد حرية الاعتقاد وحرية الفكر باسم الإسلام إنما يلحقون إساءة بالغة بمفهوم الإسلام للحرية.. بل ويجهلون حقيقة وجوهر الإسلام.

الحبيشي : ولكن بعض الإسلاميين يا أستاذ جمال يضعون تحفظات وقيودا على حرية الفكر باعتبارها بدعة غربية من صنع الدساتير والقوانين الوضعية.. إنّهم يتحدثون عن حرية الفكر بشرط ألا يكون مغايراً للفكر الإسلامي بمرجعياته الفقهية التي استقر عليها وانتهى اليها الفقهاء الأسلاف .. ولعلّهم يقصدون في واقع الحال ألا تتعارض هذه الحرية مع الفكر السائد بقوة السلطة التي سيصلون إليها.. علماً بأنّ الأفكار التي قمعت في الماضي لم تكن كافرة وغير إسلامية بل كانت مخالفة لفكر السلطة ولفقهها الرسمي.

ما هو تعليقك على هذه التحف